مجلة البلاغ

العدد : ١٨٥ الموافق في رجـــب ١٤١٧ هجري ١٢ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : حديث في البناء	بقلم : محمد العبدة

إن من أعظم مقاصد القرآن وشرائع الإسلام إخلاص العبادة لله وحده ، ومحاربة كل ما يضاد ذلك ، بل إذا أردنا أن نلخص الإسلام بكلمة لقلنا : إنه دين (التوحيد) وهذا ما عناه الصحابة رضوان الله عليهم عندما قالوا : « تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن » وهو الذي قال تعالى عنه : { **ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء** }[إبراهيم:٢٤] ثابت في قلوب المؤمنين وما يصدر عنهم من الأفعال الزكية ، قال ابن عطية في تفسيره : « الدعاء إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر في الأفعال والعبادات كالروح للجسد » [تفسير ابن عطية ٣٦٨/٨] ومن عظمة هذا التوحيد وأهميته أن المسلمين لو رأوا رجلاً موسوماً بطهارة الأخلاق والعفة والاستقامة لا يلتفتون إلى هذه الفضائل إذا كان صاحبها مدخول العقيدة. وهذا التوحيد ليس شيئاً مستكناً في الضمير أو القلب ، بل من ثمراته العلم النافع والعمل الصالح ، قال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وملكة سبأ : { **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ❋ وصدها ما كانت تعبد من دون الله...**}[النمل:٤٢-٤٣] قال العلماء : أي صدها هذا الشرك عن الكمال العلمي والرشد الفكري وهذا التوحيد يفيد العمل الصالح أيضاً ، قال تعالى : { **وهديناه النجدين ❋ فلا اقتحم العقبة ❋ وما أدراك ما العقبة ❋ فكُّ رقبة ❋ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ❋ يتيماً ذا مقربة ❋ أو مسكيناً ذا متربة ❋ ثم كان من الذين آمنوا...** }[البلد:١٠-١٧] قال المفسرون : إن حرف (ثم) هنا لترتيب الرتبة ، الدال على أنه جدير بالتقديم أي بعد كونه من الذين آمنوا.

ومن آثار هذا التوحيد أنه يجعل الإنسان يتجه إلى مصدر واحد هو الذي ينفع ويضر ، لأن كل مخلوق يحتاج إلى جلب نفع أو دفع ضر ، فإما أن يلجأ إلى مخلوق مثله ويتوهم أن عنده النفع والضر ، ويصبح ذليلاً له ، وإما أن يتجه إلى الخالق ، ويكون من آثار ذلك أن الخلق متساوون في التوجه لنفس المصدر ، وبذلك ينتفي من حياتهم الخوف والوهم ، وتتوحد مقاصدهم ووسائلهم.

ومن آثار ذلك أن تتوحد الشخصية المسلمة من داخلها ، لا تتقاسمها الأفكار المتضاربة المتعاكسة تأخذها ذات اليمين وذات الشمال ، فهي كالأفلاك التي ترتبط بالجاذبية ، قال تعالى واصفاً المشرك : { **ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** }[الزمر:٢٩] قال ابن عطية : « هذا مثل في أهم الأمور وأخطرها وهو التوحيد ، فمثل

تعالى العابد للأوثان والشيطان بعبد لرجال عدة في أخلاقهم شكاسة وعدم مسامحة ، فهم يعذبون هذا العبد ويضايقونه في كثرة العمل ، وكذلك عابد الأوثان متى أرضى صنماً تفكر فيما يصنع للآخر ، وكذلك المصانع للناس ، المُمتَحن بخدمة الملوك ، وأما المؤمن فهو كعبد لرجل واحد يكلفه شغله ، وقد ساس مولاه فهو يغفر له زلته ، ويشكره على عمله » [تفسير ابن عطية ٥٣٠/١٢] .

إن الأمثلة من واقع المسلمين اليوم لهذا التشتت والتمزق من الداخل كثيرة ، فالمسلم الذي يفصل بين السياسة والأخلاق ، أو بين السياسة والعقيدة ، فلا يهتم بتعامله وتحالفاته وحربه وسلمه بمن يعامل ، ولا كيف يتعامل ، لا شك أنه يعيش في دوامة ، تنغص عليه حياته.

وكذلك المسلم صاحب الفطرة السليمة ، الذي يحب العمل وبذل الجهد والتعاون ، ولكنه في الوقت نفسه يحب أن يسأل ويناقش ويفكر ، فيقال له : لا بد أن تعمل دون سؤال ودون اعتراض ، فالشيخ يفكر عنك ، أو الحزب يفكر عنك ولا تتعب نفسك.

كيف يعيش المسلم الذي تربى على عالمية الدعوة ، وعالمية الإسلام ، ثم يرى كل شيء حوله يدعو إلى الإقليمية الضيقة ، حتى ممن يظن أنهم من حملة الدعوة . ثم يبررون له هذه النظرة القاصرة ، ويحملونه على تبنيها وأن هذا هو المنهج الصحيح.

ومن ثمرات التوحيد الذي يدور المسلم في فلكه أنه يعطي المسلم الثبات والرسوخ ، حين يُصاب الآخرون بالغبش والاضطراب في المواقف ، وهذا الفقه لمفهوم { **لا إله إلا الله** } هو الذي جعل الصديق ﷺ يقف كالجبال الراسيات أمام طوفان الردة ، وبعض الصحابة يقولون له : كيف نقاتل من يقول : لا إله إلا الله ، فيرد عليهم : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. إن هذا الثبات لا يعني الجمود ، ولكنها المرونة المرتبطة بالمركز ، وليست المنفلتة من كل قيد أو رابط ، وإن مفهوم التربية الجزئي هو الذي حصر آثار هذا التوحيد بالسلوك الفردي ولم تتعداه إلى آثاره الاجتماعية والروابط الأخوية ، ولم تتعداه إلى مواجهة التحديات ، ومقارعة الشر والظلم والتخلف.